الإســـلام دين تبشيري

للمستشرق الانجليزي توماس أرنولد
للأستاذ عبد الفتاح السرنجاوي
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية أصول الدين

كان المرحوم السير توماس أرنولد المتوفى في التاسع من يونية سنة ١٩٣٠ — أستاذا للغة العربية في جامعة لندن، وكان واسع الاطلاع في علوم الدين الاسلامي واللغة العربية ، وأهم مؤلفاته كتاب: «الدعاية الاسلامية The Preaching of Islam». وهو بحث عظيم الخطر جليل القيمة في تاريخ انتشار الدين الاسلامي. طبع المرة الأولى سنة ١٨٩٦ ، وأعيد طبعه سنة ١٩١٣ ؛ ثم طبع بعد وفاة المؤلف طبعة ثالثة سنة ١٩٣٥ كتب مقدمتها المستشرق العلامة (رينولد نيكولسن) . وأهم ما يلفت النظر في هذا الكتاب هدوء البحث ، وسلامة التفكير ، وعدم التحيز . ولا غرو فقد كان مؤلفه من أكثر المستشرقين اعتدالا وأصدقهم نظراً وأكثرهم تجرداً من النزعات التعصبية ، وهذا جعل لكتاباته في الموضوعات الاسلامية أهمية خاصة ، ونحن نكتفي بهذا التعريف القصير لنقدم لقراء (الرسالة) ترجمة الفصل الأول من هذا الكتاب القيم ، وهذا الفصل يعتبر مقدمة لما تناوله المؤلف بالبحث في بقية فصول الكتاب ، وستوافي الرسالة بترجمة الفصول الأخرى تباعاً ، كما أننا سنعد دراسات أخرى لمآخذنا على بعض آراء المؤلف «ع.س»

برح الخفاء منذ ألقى الأستاذ ماكس مولر Max Müller محاضرته بكنيسة وستمنستر يوم الشفاعة للجماعات التبشيرية في ديسمبر سنة ١٨٧٣ . وأسفر الموقف عن أن الديانات الست العالمية العظيمة يمكن تقسيمها إلى تبشيرية وغير تبشيرية . فالنوع الثاني تنضوي تحت لوائه اليهودية والبراهمية والزرادشتية . ويضم النوع الأول البوذية والمسيحية والإسلام . ولقد حدّد الأستاذ في وضوح ما اصطلح على تسميتها (ديانة تبشيرية) فقال : إن معناها أن يكون نشرها وإدخال الكفار فيها قد سما إلى مرتبة الواجب القدسي في نظر منشئ الديانة أو خلفائه الأولين ... إنها روح اليقين في نفوس المؤمنين لا يقر قرارها حتى تنبعث فكرةً فقولاً فعملاً ، ولا ترضى وتطمئن حتى تبلغ رسالتها إلى كل نفس إنسانية ، وحتى يؤمن بما آمنت به أفراد البشرية جميعاً [١]

(١) تعليق على مقالة (المستر لايال = Mr. Layall) التي عنوانها (الديانات التبشيرية) في مجلة فورتنيتلي ريفيو = Fortnightly Review) عدد يولية سنة ١٨٧٤

ومثل هذه الغيرة التي بدت من المسلمين لتشهد على صدق دينهم هي التي حفزتهم على أن يحملوا رسالة الإسلام إلى كل أرض ينفذون إليها ، وهي التي جعلت لدينهم بحق تلك المكانة بين الديانات التي نطلق عليها (الديانات التبشيرية) . وتاريخ نشأة هذه الغيرة التبشيرية والقوى الدافعة إليها وطرائق نشاطها كلها موضوع الصحائف القادمة ، ولا ريب في أن أولئك المائتي مليون من المسلمين المنتشرين اليوم في الأرض دليل جهاد هذه الروح طوال القرون الثلاثة عشر الماضية .

وأعلن تعاليم هذا الدين لأول مرة في القرن السابع عشر على أهل بلاد العرب نبي انضوت تحت لوائه قبائلها المتفرقة فأضحت شعباً واحداً ، ثم دبت فيهم الروح القومية الجديدة فملأتهم حياة ونشاطاً ، ثم سرت في جيوشهم حماسة وغيرة فملأتها بأساً وقوة لا مرد لها ، وبهذه العدة كلها خرج المسلمون إلى القارات الثلاث يفتحون البلاد ويخضعون العباد ، فاستولوا في أول الأمر على سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وبلاد فارس ، وانطلقوا بعد هذا غرباً إلى أسبانيا وشرقاً إلى ما وراء الأندوسيا ، ولم يمض على وفاة النبي مائة عام حتى وجد المسلمون أنفسهم سادة امبراطورية أوسع رقعة من امبراطورية روما في أوج قوتها .

ورغم أن هذه الأمبراطورية قد تصدعت فيما بعد وانهارت قوة الإسلام السياسية فإن فتوحه الروحية قد بقيت لا تحول دون سبيلها الحوائل . نعم أغار المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ وسلبوها ، وأغرقوا في الدماء مجد العباسيين وقد ذبل عوده وحال لونه ، وقام النصارى في الأندلس وعلى رأسهم فرديناند صاحب أيون وقشتالة فطردوا المسلمين من قرطبة سنة ١٢٣٦ ، ودفعت غرناطة آخر حصن للمسلمين في الأندلس الجزية للملك المسيحي . كان ذلك كله يجري والمسلمون يضعون أقدامهم في أرض جديدة يدخلون أهلها في دين الله ، تلك هي جزيرة سومطرة ، ثم كانوا على وشك أن يبدأوا تقدمهم الموفق في جزائر أرخبيل الملايو ، وهكذا يقوم الإسلام في ساعات انهياره السياسي بطائفة من أعظم غزواته الروحية . وفي التاريخ ظرفان خطيران وطيء فيهما الكفار بأقدامهم أعناق المسلمين ، أولهما : حين دهمهم الأتراك

السلاجقة فى القرن الحادى عشر ؛ والثانى حين غزاهم المغول فى القرن الثالث عشر . ورغم أن الغزاة أخضعوا المسلمين لسلطانهم السياسى فى كلتا الحالتين فإنهم خضعوا لسلطان الدين الإسلامى ورضوه دينا لأنفسهم . وفى مرة أخرى نجد المبشرين المسلمين فى غير اعتماد على سلطان الحكم وصولة الجيوش يحملون الدين الإسلامى إلى أواسط أفريقيا والصين وجزائر الهند الشرقية .

واليوم يمتد نطاق الإسلام من مراكش إلى زنجبار ، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين ، ومن البوسنة إلى غيانة الجديدة . ولو أننا تركنا البلاد الإسلامية البحتة أو التى يسكنها عدد كبير من المسلمين كالروسيا والصين ، وجاوزنا حدودها إلى البلاد التى لم تؤمن بالإسلام لوجدنا بها بعض الجماعات الإسلامية القليلة العدد المحدودة الكيان تشهد على قيام الإسلام بين من كفروا بدعوته . ومن أمثلة ذلك لتوانيا التى يعيش فيها مسلمون من أصل تترى يتكلمون اللغة البولندية ويسكنون أقاليم كوفنو وفلنو وجردونو[1] ، وكذلك المسلمون الذين يتخاطبون باللغة الهولندية فى مدينة الرأس ، كذلك أجراء الهنود الذين حملوا معهم الدين الإسلامى إلى جزر الهند الغربية وغيانا البريطانية والهولندية ، وأخيراً نجد للاسلام أنصاراً فى انجلترا وشمال أمريكا واستراليا واليابان ...

ويرجع انتشار الإسلام فى تلك الساحات الواسعة على ظهر الأرض إلى أسباب كثيرة اجتماعية وسياسية ودينية ، ولكن من أهم العوامل التى أحدثت هذه النتيجة المثيرة للاعجاب جهود المبشرين المسلمين المتتابعة ، وهؤلاء اقتدوا بالنبي (ص) نفسه فضحوا بحياتهم معه فى سبيل إدخال الكفار فى دينهم .

ولم يكن واجب الدعوة إلى الدين فكرة متأخرة فى تاريخ الإسلام ، بل كان أمراً محتوماً على المؤمنين من أول الأمر ، يدل على ذلك ما نسوقه إليك من آيات القرآن المرتبة ترتيباً زمنيا بحسب نزولها :

« أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (س ١٦) (١٢٦)

« وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » (س ٤٢) ، (١٥ — ١٦)

ونجد نذراً كثيرة كهذه فى السور المدنية التى نزلت ومحمد على رأس جيش عظيم وهو فى منتهى قوته ، نسوق منها ما يأتى :

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؛ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »
(س ٣) (٢٠)

« ... كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (س ٣) (١٠٤ — ١٠٥)

« لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم . وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون » (س ٢٢) (٦٨ — ٦٩)

والآيات الآتية مأخوذة من السورة التى تعتبر على وجه الإطلاق آخر ما نزل من القرآن :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »
(س ٩) (٨)

إذاً فالإسلام منذ نشوئه دين تبشيرى من الوجهتين النظرية والعملية ؛ وحياة محمد مثل لهذا المبدأ التبشيرى ، كما أن النبى نفسه قد ظهر على رأس جماعات تبشيرية عديدة نجحت فى إدخال الكفار فى الإسلام . ولا يصح فوق هذ أن نغتنم الأداة على الروح التبشيرية فى الإسلام فيما قام به أهل الاضطهاد من ضروب العنف والقسوة ، أو أن نبتغيها فى جهاد هذه الشخصية التى تكاد تكون إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ، شخصية المحارب المسلم يحمل سيفه فى إحدى يديه ويحمل القرآن فى الأخرى[1] ؛ وإنما يجب

(١) (ركليس = Reclus المجلد الخامس صحيفة ٤٣٣ و (جازتوت Gasztowtt صحيفة ٣٢٠

(١) نشأ هذا التشويه لحروب المسلمين عن افتراض أن غزوهم لبلاد الكفار تضمن أن الغرض تحويلهم إلى الاسلام ، ولقد أوضح (جولد زيهر) هذا التمييز بين الأمرين فى كتابه (Vorlesungen über den Islam)

أن نلتمسها فيما بذله المبشر والتاجر من جهد هادئ بعيد عن الفضول ، فحملا دينهما إلى كل مكان على وجه الأرض . ويريدنا البعض أن نحذو مثالهم فى الاعتقاد بأن المسلمين لم يلجأوا إلى مثل هذه الطرق السلمية فى التبشير والإقناع إلا حين أقعدتهم الظروف السياسية فجعلت من المستحيل أو من غير الكياسة استعمال العنف والقوة ، ولكن الحقيقة أن القرآن فى كثير من الآيات يحض على الرفق فى الدعوة ؛ ومن أمثلة ذلك :

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً . وذرنى والمكذبين أولى النَّعْمة ومهلهم قليلاً » (س٧٣) (١١ — ١٢)

« إلا بلاغاً من الله ورسالاته » (س ٧٢) (٢٤)

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون » (س ٤٥) (١٣)

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من دونه من شئ ، كذلك فعل الذين من قبلهم، فهل على الرسل إلاَّ البلاغ المبين » (س ١٦) (٣٦)

« فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين » (س١٦) (٨٣)

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالتى هى أحسن إلاَّ الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » (س ٢٩) (٤٧)

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلاَّ البلاغ » (س ٤٢) (٤٩)

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (س ١٠) (١٠٠)

« وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (س ٣٤) (٢٩)

وليست أمثال هذه الوصايا قاصرة على السور المكية ، ولكنها تكثر كذلك فى السور التى نزلت فى المدينة . ومن أمثلتها ما يأتى:

« لا إكراه فى الدين » (س ٢) (٢٥٦)

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » (س ٦٤) (١٣)

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلاَّ البلاغ المبين » (س ٢٤) (٥٥)

« قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » (س ٢٢) (٥٠)

« إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً » (س ٤٨) (٩ - ١٠)

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلاَّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » (س ٥) (١٥)

والغاية من كتابة الصحائف الآتية أن نبين كيف تحققت هذه المثل فى التاريخ ، وكيف تناول الداعون إلى الإسلام تلك المبادئ التى تعزى إلى النشاط التبشيرى فجعلوا منها أموراً عملية ، كما أود فى بداءة البحث أن يفهم القارئ فى وضوح أننى ما قصدت من وضع هذا الكتاب أن أدون تاريخ العنف والاضطهاد فى الإسلام ، وإنما قصدت أن أدون تاريخ التبشير الإسلامى . وليس غرضى من تأليفه أن أتناول الظروف التى تحوَّل الناس فيها إلى الإسلام بوسائل الإكراه والقسر — وهى مبعثرة هنا وهناك فى صحائف التاريخ الإسلامى — فقد أمعن الكتاب الأوربيون فى التنقير عنها والتهويل فى تدوينها على وجه لا يخشى معه من نسيانها ، ثمّ هى لا تدخل على وجه الدقة فى نطاق تاريخ التبشير الإسلامى . فلنجاوز هذا إلى تاريخ التبشير المسيحى ، وفى بطونه نتوقع بطبيعة الحال أن نقرأ عن الجهود التى بذلها القديس ليدجار Liudger والقديس ويليهاد Willehad بين الوثنيين السكسون أكثر مما نقرأ عن حالات التنصير التى أمر شارلمان أن تكون ، فكانت تحت قراع الرماح ورنين القسى ، فى جو من الرهبة تداعت فيه الأصوات وتجاوبت الأصداء[1] . كذلك الحال فى الدانمرك فقد اجتث ملكها كنوت Cnut الوثنية من بلاده بحد السيف ، ولكن بالرغم من هذا فالقديس أنسجار St. Ansgar وخلفاؤه هم الممثلون الصادقون للتبشير بالنصرانية هناك. وفى بروسيا عثل التبشير بالمسيحية القسيس جوتفريد

(١) راجع حوليات انهاردى فولدنسيس (Enhardi Fuldensis) سنة ٧٧٧ م وراجع كتاب (Monumenta Germaniæ Historica) تأليف (G. H. Pertz) المجلد الأول صحيفة ٣٤٩ وراجع أيضاً صحيفتى ١٥٦ ، ١٥٩ من نفس الكتاب.

والأسقف كرستيان برغم ما منيا به من الفشل فى كسب الوثنيين البروسيين إلى دينهم، وبالرغم مما كتب من التوفيق لجماعة (إخوان السيف) وبقية الصليبيين الذين تيسر لهم أن يتموا بقوة النار والحديد ما بدأه جوتفريد وكرستيان . وفى ليفونيا نهضت طائفة من الفرسان تدعى (جماعة الاخوان المسيحيين الحربيين) بإدخال أهل هذه البلاد فى النصرانية بوسائل الحرب والقسر، ومع ما اقترن بجهدهم من المضاء والغناء فالراهبان مينهارد وتيودوريك هما بحق رسولا المسيحية إلى هذه البلاد . ولقد لجأ الجزويت أحياناً إلى وسائل الارهاب والعنف[1]، ولكن هذا لا يحط من قدر المآثر التى كسبها أمثال القديس (فرانسيس اكسافيير) والمبشرين الآخرين من الجزويت . ولا يقل عن أولئك كل ما يعزى إلى (فالتين) رسول جزيرة أمبوينا إذ صدرت الأوامر سنة ١٦٩٩ لكل راجا من حكامها أن يعد عدداً من الوثنيين يتنصرون على يد هذا الرسول فى إحدى جولاته فى الجزيرة[2]

وتبدو حركة التبشير فى تاريخ الكنيسة المسيحية متقطعة غير متصلة، فهذا عصر انتعاش وحماسة فى التبشير يعقبه عصر بلادة وجمود، وذاك عصر تحل فيه وسائل الإرهاب والقسوة محل وسائل الإرشاد والدعة . وهذا بعينه هو شأن الدعاية فى الإسلام تنساق إلى المد، ثم لا تلبث أن تستطرد إلى الجزر . ولكن لما كانت الحماسة التبشيرية فى كلتا الديانتين ظاهرة متميزة، فتاريخ الدعاية فى كل منهما حرىٌّ بأن يكون موضوع درس مستقل . وليس معنى هذا أن نبعد عنه بقية المظاهر الأخرى للحياة الدينية، ولكن معناه أن نفرغ جهدنا فى واحد من هذه المظاهر له مميزاته الخاصة . إذاً فتاريخ الدعاية وتاريخ الاضطهاد يجب أن يدرس كل منهما درساً مستقلاً بعيداً عن الآخر، سواء أكان ذلك فى تاريخ الكنيسة المسيحية أو فى تاريخ الديانة الإسلامية رغم ما حدث من تلازمهما فى بعض الظروف فى كلتا الديانتين، ذلك لأن الدين المسيحى لم يستفض هذه الاستفاضة وينتشر هذا الانتشار فى كل الظروف بمثل الوسائل التى استخدمها فى فيكين Viken جنوب النرويج الملك أولاف تريجفسون Olaf Trygvesson الذى عمد إلى من رفضوا الدخول فى المسيحية فذبحهم أو قطع أيديهم وأقدامهم أو نفاهم خارج بلاده، وبهذا نشر النصرانية فى كل أنحاء فيكين[1] . كذلك لم تكن نصيحة القديس لويس مبدأ يسير عليه المبشرون النصارى، تلك النصيحة التى يقول فيها: « إذا سمع أحد العوام شخصاً يطعن فى الشرع المسيحى، فلن يذبَّ عن دينه إلا بسيفه، وليوغل بذلك السيف فى أحشاء الكافر إلى أبعد مدى يستطيع[2] »

ونجد بالمثل جماعات تبشيرية إسلاميه لم تستن تلك السنة البربرية التى عبر عنها مروان آخر الخلفاء الأمويين بقوله: « من لم يدخل من أهل مصر فى دينى ويصل كما أصلى ويتبع مذهبى لأقتله وأصلبنه[3] »

كذلك لن نعتبر المتوكل والحاكم وتيبو سلطان أصدق أمثلة المبشرين المسلمين لنخرج من الميدان أمثال مولانا إبراهيم الداعى إلى الإسلام فى جاوة وخواجة معين الدين شيشتى فى الهند وغيرهم ممن لا يحصيهم العد وكان لهم فضل فى إدخال الناس فى الإسلام عن طريق الهدى والإرشاد السلمى وحدها

ولكن بالرغم من أنه يمكن وضع فاصل للتمييز بين اعتناق الدين عن طريق الاضطهاد والعنف وبين اعتناقه نتيجة الإرشاد والدعاية السلمية، فإنه ليس يسيراً أن نتحقق الدوافع التى حملت الشخص على أن يستبدل بدينه القديم ديناً آخر . كذلك ليس من السهل أن ينجلى لنا إذا كان المبشرون بالدين قد تساموا إلى حد اعتبار الدعوة الدينية واجباً روحياً مقدساً، واسترشدوا بالمثل الأعلى الذى أوضحناه فى الفقرة الأولى من هذا الفصل،

(١) راجع كتاب (تاريخ النصرانية بين الهنود) تأليف (ماتورين فيسيير دلاكروز صحيفق (٥٢٩ — ٥٣١) طبعة لاهاي سنة ١٧٢٤

(٢) مجلة تاريخ الأديان (Revue d'histoire des Religions) المجلد الحادى عشر صحيفة ٨٩

(١) كتاب الأستاذ كونراد موور (Die Bekehrung des norwegischen zum Christenthume) المجلد الأول صحيفة ٢٨٤ طبعة (München) سنة ١٨٥٥

(٢) كتاب تاريخ القديس لويس تأليف (جان سير دي جوانفيل) طبعة (N. de wailly) صحيفة ٣٠

(٣) كتاب (Severus) صحيفة ١٢١

في كلتا الديانتين نجد نفوساً متحمسة تحل دينها محل الحقيقة العليا في حياتها ، وقد وَجَدَ مثل ذلك الكلف الشديد بالشئون الروحية مخرجاً في تلك الحماسة التي أدَّت إلى اعتناق الحقائق الجزلة السديدة ، وإلى سيادة المذاهب والعقائد التي آمن الناس بصحتها ، وهذا كله مصدر القوة التي اشتدت بها عرى الحركات التبشيرية وثبتت قواعدها . وهناك قوم لم يعملوا أكثر من الاستجابة إلى دعوة الداعين ، ولكنهم اعتنقوا الدين الجديد بحماسة لا تقل عن حماسة الأولين ، وعلى نقيض هؤلاء وهؤلاء عرف الإسلام كما عرفت النصرانية قوماً آمنوا بكلتا الديانتين ، وكانت الشرائع الدينية لديهم مجرد ذرائع إلى ما يبتغون من الأغراض السياسية أو وسائل إلى ما يلتمسون من أوضاع للنظم الاجتماعية ، وهكذا اعتنق أولئك القوم دينهم الجديد على أنه ضرورة يخطرون أنفسهم عليها إخطاراً ، أو على أنها حلول مناسبة للمشاكل التي لم يعنوا بالتفكير فيها وإيجاد حلها بأنفسهم ، ومثل هؤلاء نجدهم على السواء في كلتا الديانتين ، إذاً فقد اعتنق الاسلام كما اعتنق النصرانية في ظل الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية قوم لا تصلهم صلة بهذه الحرقة الروحية ، وذلك الغليل النفساني الذي يسهّد المبشرين الصادقين ، وفوق هذا فتاريخ الحركات التبشيرية وما يصادفها من الأحداث إنما يعنى عادة بتدوين حالات التحول من دين إلى آخر دون العناية بتحليل الدوافع التي حملت الناس على استبدال دينهم بغيره ، وتاريخ التبشير الاسلامي على وجه الخصوص يفتقر افتقاراً بيناً إلى المادة في هذا الصدد لأن الأدب الإسلامي معوز إلى أخبار حالات التحول إلى الدين الإسلامي ، بينما اهتم أدب الكنيسة النصرانية بمثل هذه الحالات في الدين المسيحي وأحلها منه محلاً رفيعاً ، وعلى هذا فنحن في مجالتنا القادمة لموضوع النشاط التبشيري الإسلامي لم نستطع الوصول إلى طبيعة العوامل التي حملت الناس على الدخول في الاسلام ، سواء منها السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية البحتة ، ولو أننا استطعنا في بعض الظروف أن نثير إشارات عرضية لما أحدثته بعض هذه العوامل من الآثار

عبد الفتاح السرنجاوي

قلتُ لنفسي ...

عجيبٌ أمر ابن آدم اليوم !! يكاد لا يعطف بعضه على بعض إلا المادة أو السطوة أو الشهوة ! أما ألفة الجنس للجنس ، ومتعة الإنس بالإنس ، وإجابة الحس للحس ، فقد أصبحت في هذا الزمان ، من الصفات الأثرية في الإنسان .

كانوا يقولون إن الناس مع الزمان ، يقبلون متى أقبل ، ويدبرون متى أدبر . فكنا نقول : كان ذلك والزمان كلبٌ يجري وراء سيده ، ما دام الرغيف في يده . أما اليوم فالزمان إنسان حر مفكر لا يتبع إلا المبدأ ولا يطيع غير الضمير . ولكن الواقع وا أسفا علمنا أن الزمان لا يزال كلباً ، وأن المال لا يزال رباً ، وأن حكمة الأولين لا تزال صادقة ! .

لي صديق من رءوس العراق المرفوعة بالفضل والنبل والكفاية ، كان وهو في سلطان السيف وعزة القلم مرجع الرأي والهوى والحاجة . فلما نكبته في نفسه وأهله السياسة الشوهاء الجموح ، تجرد كالسيف، وتفرد كالأسد، وأصبح فإذا الوجوه أقفاء ، والأنصار أعداء ، والأحياء في دنياه موتى ؛ فلا رأس ينحني ، ولا لسان يحيي ، ولا يد تصافح . وظل وحده يعالج مرارة الحزن والحرمان والغربة حتى صحا الدهر من غفوته ، ونهض الحظ من كبوته ، فعاد إلى الوزارة ، وعاد الناس إلى الزيارة ، وقال الوجه الذي عبس وأشاح ، واللسان الذي ذم ونم : والله يا مولانا لا يعدُل حزننا لغيبتك، إلا فرحُنا بأوبتك... ثم انعكست الصفات في الصحف ، فصارت الخيانة أمانة ، والبلادة زكانة ، والعقوبة شهادة ...

ابن عبد الملك